الخيوط البلق من نهار عمري وليله كانت تحوك نسيجا لابسته في ميقات موعود كما يلابس الطير خيوط شباكه فيقع عديم الارادة في قبضة مصير محتوم . ضمني ضم الشرنقة لمحتواها ..

صرت نزيل المستشفى رقما مكتوبا في سرير باحدى غرف الطابق التاسع في مدينة الطب ..

عالم المستشفيات كعالم السجون يتفقان في ان ضيوفهما يواجهون مصيرا تائها بين الاحتمالات جلها تغرى بالتوجس ونقصان الثقة . وتوقع مالايسر ! ان اقرب الامال الى التحقق في هذين العالمين لايحصل الا عبر مصاعب يخور فيها العزم وكنت اعلم ان اطول اهمالي لعلتي حتى استفحلت الى الخطورة قد اضاف الصعوبة الى ماكان سهلا من شئونها وشجونها فكيف بما هو صعب في ذاته !

لكن الثقة لم تفارقني : فمن غريب امرى الذي هو من الصدف السعيدة من جبلتي هو اني مع امتناعي الفطري من التفاؤل العبيط والتعشم الاجوف وتوقع الابهج فان امتناعي من السوداوية واحترازي من التشاؤم اقوى وامكن من طبعي . وكان لثقتي الكاملة بطبيبي المعالج رفد عظيم للقوة التصميم في التغلب على المحنة .. انه طبيب من صفاته ان يقدم سلامة المريض على راحته فلايجنبه اية صعوبة فيها مظنة شفائه .. انه الدكتور اسامة وكفى ..

مضت بضعة الايام الاولى وانا مشارك لثلاثة اخرين من الممتحنين بمثل مرضي في غرفة واحدة كثيرا مكانت تضيق بالزوار الذين يتقاطرون في غير ايام الزيارة ولكن ثلاثتهم كانوا من طوله البال وسعة الصدر معي حتى ابدو بينهم كالضيف العزيز المدلل .. بعد الايام الاولى لمست رعاية خاصة من المسؤولين المخولين حق التقدير لمتطلبات حال المريض فنقلت الى غرفة اخرى اوتنى وحدي بقية ايام مكثي بالمستشفى تحتملني وتحتمل عودي دون ان يلحق الضيق بالمرضى الاخرين .. ازدحمت اكناف القاعة بشدات الورد والهدايا الحلوة من الاصدقاء فتصرف فيها ذوو الخبرة على الوجه الاوفق الى يوم مغادرتي دون علمي او سؤالي .

كان حميد المطبعي بالمرصاد .. فما بلغ حالي علمه حتى نقل خبرى الى صحيفتي الثورة والقادسية فتفضلتا بنشرة مشكورتين بدورتين ونقلت صحف كردية ، اسبو ، وبغداد

لاراس مال لديه في الدنيا غير الصدق الذي انسوه منه في كتاباته : فيا لحلاوة الموقف وجماله وجلاله حيث ينضو الواقع اسمال الرياء والالتواء والمصانعة فيصفو وجهه لمحض الخير والصدق و الجمال . ولعل ان يكون من تمام هذا الصفاء والجمال قولي الان اني لم اتلق من ماضي ايامي كلها مكافاة بلغت غاية السخاء حتى اشبعت كوامن نهمى الى التخمة مثل الذي انبث في وجودي الجسماني والروحاني من شعور اصيل عميق بعظم نصيبي في الحياة وانا اتلقى من اولئك الاصفياء عطفا يمازجه الجزع لايشترى جزء منه بمال قارون : صحيح ، ان مع العسر يسرا فان مواجع المرض ، لاسيما في ايامها الاولى ، عادلها بالتخفيف والتيسير شعوري المركز بوجود من يشاركني في معاناتها حتى كان قسطا منها يزايلني الى شركائي في الاحساس .. هذا الى جانب ماكنت المسه من العناية المثلى من الدكتور اسامة ، المشرف على علاجي والمرضى الاخرين في الجناح كله ، يعاونه فيها اطباء ومساعدون يكملون مسئولياته ويتمرنون على علمه وتوجيهه بانضباط شديد وتفان عجيب غريب ينسون فيه انفسهم وينكرون ذواتهم ..

ويكفي ان امثل على ذلك بما شهدته في احد ايام الفترة الاخيرة من وجودي بالمستشفى حين كنت استعدت القدرة على يسر التحرك وتفقد هذا والسلام على اخيه فقد لاحظت ان احد مساعدي الدكتور اسامة ، هو الدكتور نعمة يعاونه الدكتور احمد كامل ، ظل يعمل من اول الدوام في ساعات الصباح حتى الثالثة بعد منتصف الليل بلا راحة ولاغفوة ، مابين اجراء عملية في صالة ال

في ضيافة دار الشفاء

بقلم :
مسعود محمد

واستفساراتهم وتشكياتهم بلا تذمر او ملل او كسل .. فلما صعد الدكتور نعمة اخر الامر الى الطابق التاسع اثر العمليات وما اليها في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل رايته قد فقد الاحساس بالحاجة الى الراحة فقد سمعته بعد ذلك يحاور شخصا في غرفته المواجهة لغرفتي حتى الرابعة صباحا ـ الكلام بيني وبينك ، اني لم املك دمعي من الترسل وانا اشاهد هذه المباراة مع قوة الاحتمال فقد غلبني الانبهار بعظمة انكار الذات الذي عاينته في تلك الليلة بنهارها .. ويا للاسى : فلقد علمت ان الراتب الذي يتقاضاه الطبيب اول تخرجه بعيد جدا من ان يكون كفء هذا التعب المضني خلال سنوات الدراسة التي تعتصر الطالب حتى تتركه كالليمونة في العصارة فيعقبها تعب اشد خلال التمرين والتهيئة للاضطلاع بتمام مسئولية الطبيب فلربما وصل عدد سنوات الدرس والتمهيد والتمرين التي لاراحة فيها ولاخور ولا حتى التقاط النفس نحو من عشر سنين ثم لاراحة ايضا لوجود مسئوليك لاحقة خارج نطاق المهنة تاخذ سنين اخرى من عمر الطبيب الناشئ ..

على ان تجربتي مع الدكتور احمد سعيد ـ مساعد اخر للدكتور اسامة هي بمثابة السكر المضاف الى القهوة يحيلها شهدا شهيا ، كان مزحوما باكثر من مسئولية محمولة على عمله المهني في المستشفى كالقاء محاضرة ، والتهيؤ للامتحان على يد اطباء انجليز ، والذهاب معارا الى مستشفى اخر لحاجة طارئة ... لكنه يختزن في دخيلته كمية هائلة من الطيبة والانسانية وحلاوة الروح تسمو به كثيرا على التر

الى فعلي ، كب ، اكب ـ قلع ، اقلع ، المعتبرين فريدين في ان ثلاثيهما المجرد متعد وان صيغة ، افعل ، فيهما لازمة مع بقاء المعنى فيهما واحدا . واضفت الى كلامي له اني اجرا ان اضيف اليهما في هذه الصفة فعل ، عرض ، اعرض ، رغم ان الهمزة في ، أعرض ، هي ، همزة اسقاط ـ في مثل افلس واعذر ... ، و اوشكت ان افتح له باب ، الاسماء المتضايفة ، على قدر علمي بها لكن طارئا حال دون ذلك وكان الوقت متاخرا في الليل ، وفي غده شط النوى بالدكتور احمد سعيد فلم التق به بعد ذلك حتى لقد عز الوداع بيننا فكانت له مضاعفة اثر الفراق ... فلعل صروف للدهر مساعفة تتيح لقاء ثانية

كان تلامذة في الصف المنتهي من كلية الطب يتجولون دارسين احوال المرضى جلهم من تلامذة الدكتور اسامة يتمرنون على يديه بشكل عملي ميداني من ضمنه حضور العمليات الجراحية بعد تزودهم بما كفي من الدروس والمعلومات المدونة في الكتب ... وكان للماضي عودة اهل فيها من وراء سبع وعشرين سنة :

تجسد الماضي على غير انتظار مني في شخص واحدة من تلميذات ذلك الرهط . ففي ايامي الاولى بالمستشفى حيتني شابة سمراء حلوة الوجه والقسمات والنبرات والحركات عرفت نفسها انها في الصف الاخير من كلية الطب تتمرن على يدي الدكتور اسامة واسمها ، هنادي ، اسم مصري ، ـ الدكتورة هنادي ، مكلفة بدراسة حالتي تفصيلا وسوف تمتحن فيها لاحقا . اراحني محضرها بدمائتها المفرطة وانا في شدة المرض .. وبعد جلسة طويلة حاشدة بالاستفسارات عن : كيف وماذا واين ومتى و لماذا .. ؟ اجبت عليهما جميعا باستعداد التلميذ الكامل الاستعداد وهل من موضوع اسهل على فن خوضه من مرضي الذي اعيشه منذ سبع سنين ؟ في ختام الجلسة قالت انها ستعيد الزيارة مرة وثانية وثالثة وقد فعلت .. فلما جاءتني في الجولة الثانية سالتني : هل ان لي اختا اصغر مني اسمها ثريا ؟ فتذكرت في اللحظة بعض ايام سنة ١٩٦٠ حين كنت اصاحب اختي الصغرى ثريا في مراجعات القبول طالبة بالقسم الداخلي في دار المعلمين العالية ومعها

...يافة
...شفاء

بقلم :
محمد

الى فعلي ، كب ، اكب ـ قلع ، اقلع ، المعتبرين فريدين في ان ثلاثيهما المجرد متعد وان صيغة ، افعل ، فيهما لازمة مع بقاء المعنى فيهما واحدا . واضفت الى كلامي له اني اجرا ان اضيف اليهما في هذه الصفة فعل ، عرض ، اعرض ، رغم ان الهمزة في ، أعرض ، هي ، همزة اسقاط ـ في مثل القس واعذر ... ، و اوشكت ان افتح له باب ، الاسماء المتضايفة ، على قدر علمي بها لكن طارئا حال دون ذلك وكان الوقت متاخرا في الليل ، وفي غده شط النوى بالدكتور احمد سعيد فلم التق به بعد ذلك حتى لقد عز الوداع بيننا فكانت له مضاعفة اثر الفراق ... فلعل صروف للدهر مساعفة تتيح لقاء ثانية

كان تلامذة في الصف المنتهي من كلية الطب يتجولون دارسين احوال المرضى جلهم من تلامذة الدكتور اسامة يتمرنون على يديه بشكل عملي ميداني من ضمنه حضور العمليات الجراحية بعد تزودهم بما كفي من الدروس والمعلومات المدونة في الكتب ... وكان للماضي عودة اهل فيها من وراء سبع وعشرين سنة :

تجسد الماضي على غير انتظار مني في شخص واحدة من تلميذات ذلك الرهط . ففي ايامي الاولى بالمستشفى حيتني شابة سمراء حلوة الوجه والقسمات والنبرات والحركات عرفت نفسها انها في الصف الاخير من كلية الطب تتمرن على يدي الدكتور اسامة واسمها ، هنادي ، اسم مصري ، ـ الدكتورة هنادى ، مكلفة بدراسة حالتي تفصيلا وسوف تمتحن فيها لاحقا . اراحني محضرها بدمائتها المفرطة وانا في شدة المرض .. وبعد جلسة طويلة حاشدة بالاستفسارات عن : كيف وماذا واين ومتى و لماذا .. ؟ اجبت عليهما جميعا باستعداد التلميذ الكامل الاستعداد وهل من موضوع اسهل على فن خوضه من مرضي الذي اعيشه منذ سبع سنين ؟ في ختام الجلسة قالت انها ستعيد الزيارة مرة وثانية وثالثة وقد فعلت .. فلما جاءتني في الجولة الثانية سالتني : هل ان لي اختا اصغر مني اسمها ثريا ؟ فتذكرت في اللحظة بعض ايام سنة ١٩٦٠ حين كنت اصاحب اختي الصغرى ثريا في مراجعات القبول طالبة بالقسم الداخلي في دار المعلمين العالية ومعها تلميذات اخريات من اماكن متفرقة منهن واحدة من كركوك ، يصاحبها والدها ، قبلت مع اختي في قائمة واحدة فقالت لي

اثناء احدى زياراتي العابرة لاختي وصويحباتها .. والذكريات صدى السنين الحاكي ... بعد ايام حصل امتحانها في درس حالتي فقد حضر الدكتور اسامة الى معتقلي ومعه حوالي عشرة من التلاميذ فاستولى بلسئلته المباشرة وغير المباشرة ملكانت الدكتورة هنادي استوفته مني وكنت اسمع الحوار مع بقية الطلاب المستمعين اجازته هنادي بنجاح مقبول في ضوء الاسئلة الدقيقة التي كان الدكتور اسامة يفرعها من اصل المواضيع الى مايتصل بها وينبني عليها من تشابكات العلل والمعلولات.

وحدثت تجربة صغيرة ذات دلالة لاستخف بها : ففي اوائل ايامي بالمستشفى وانا في اشد المعاناة والكلال زارني شاب لاعرفه . قدم نفسه على انه ماركسي معه جماعة مثله ماركسيون ينتظرونه خارج المستشفى وقد ناب عنهم ليناقشني في الماركسية وسيعود الي والى الموضوع مرة او مرات .. رحبت به وتشابكت خيوط الحوار بيننا لمدة غير قصيرة حاولت فيها ان احترم جهده من تكلف الحضور فاضئ مواضع اشكالاته بما عندي من القدرة على الايضاح . لم احنق به قطعا وفتحت له صدري المكدود فقد كفاني منه احتراما لارائي انه اختارني دون العالمين للمناقشة رغم اختلاف الراي ، بل بسبب هذا الاختلاف . فقد بدا انه كان قد قرا كتاباتي فتراءى له فيها من الوجاهة ماحرك فيه الحرص على قدسية معتقدة بالدفاع عنه في وجه ادلة نقض نشرتها لايسوغ تجاهلها .. كانت المسافة الفكرية بيننا واسعة باكثر مما بين عمرينا من تفاوت جيلين وكانت تصوراتنا عن حقائق هذه الدنيا المتصلة بمصالح البشر على طرفي نقيض بل اننا لم نكن نتصل في الفكر حتى عن طريق التناقض ولكني لم اشعر معه بالغربة الروحية فقد لمست منه اخلاصا لاشائبه فيه ـ فيما يعتقد .. ثم لم يعد الى زيارتي حتى يومي هذا ٢٣/١٠/١٩٨٩ ـ وقد مضى شهر ويومان على عودتي للبيت ـ كان اهتمام قرائي بي في مرضي يقابله مني وفائي لهم بما انا قادر عليه من اعتصار فكري مدادا على الورق فكنت في ذلك امتدادا لنفسي المعهودة حتى في اشد ايام المرض وطاة علي فيها نسيتهم ولانسيت دينهم في ذمتي فقد كنت قبل رقادي بالمستشفى بيوم واحد قدمت الى رقابة المطبوعات الجزء الاول من كتابة لي في التعليق على كتاب الرئيس

...يها من وزراء سبع و...زين
تجسد الماضي على غير انتظار مني
ي شخص واحدة من تلميذات ذلك
لرهط . ففي ايامي الاولى بالمستشفى
حيتني شابة سمراء حلوة الوجه
والقسمات والنبرات والحركات عرفت
نفسها انها في الصف الاخير من كلية
الطب تتمرن على يدي الدكتور اسامة
واسمها « هنادي » اسم مصري » -
الدكتورة هنادى » مكلفة بدراسة
حالتي تفصيلا وسوف تمتحن فيها
لاحقا . اراحني محضرها بدمائتها
المفرطة وانا في شدة المرض .. وبعد
جلسة طويلة حاشدة بالاستفسارات
عن : كيف وماذا واين ومتى و
لماذا .. ؟ اجبت عليهما جميعا
باستعداد التلميذ الكامل الاستعداد
وهل من موضوع اسهل على فن
خوضه من مرضي الذي اعيشه منذ
سبع سنين ؟ في ختام الجلسة قالت
انها ستعيد الزيارة مرة وثانية وثالثة
وقد فعلت .. فلما جاءتني في الجولة
الثانية سالتني : هل ان لي اختا اصغر
مني اسمها ثريا ؟ فتذكرت في اللحظة
بعض ايام سنة ١٩٦٠ حين كنت
اصاحب اختي الصغرى ثريا في
مراجعات القبول طالبة بالقسم
الداخلي في دار المعلمين العالية ومعها
تلميذات اخريات من اماكن متفرقة
منهن واحدة من كركوك . يصاحبها
والدها . قبلت مع اختي في قائمة
واحدة فقلت لهنادي : هل انت بنت
السيدة نجلاء ؟ زميلة اختي ثريا ؟
فقالت نعم وان سؤالها كان بطلب من
والدتها بعد معرفتها بوجود - مسعود
محمد - في المستشفى ! كانت لحظة
حلوة ومؤسية بامتزاج كامل :
فالذكريات تجمع الامتاع الى الشجن
الى النزوع الى الحنين الى الاسف ...
الى .. الى ولكن وجود « هنادي »
بنضجها المبشر كان اشهى استحضار
لماض طوته سبع وعشرون سنة منذ
اخر مرة التقيت فيها « بالست »
نجلاء في السنة الثانية لقبولها بالكلية
عندي من القدرة على الايضاح . لم
احنق به قطعا وفتحت له صدري
المكدود فقد كفاني منه احتراما لارائي
انه اختارني دون العالمين للمناقشة
رغم اختلاف الراي ، بل بسبب هذا
الاختلاف . فقد بدا انه كان قد قرا
كتاباتي فتراءى له فيها من الوجاهة
ماحرك فيه الحرص على قدسية
معتقدة بالدفاع عنه في وجه ادلة
نقض نشرتها لايسوغ تجاهلها ..
كانت المسافة الفكرية بيننا واسعة
باكثر مما بين عمرينا من تفاوت جيلين
وكانت تصوراتنا عن حقائق هذه
الدنيا المتصلة بمصالح البشر على
طرفي نقيض بل اننا لم نكن نتصل في
الفكر حتى عن طريق التناقض ولكني
لم اشعر معه بالغربة الروحية فقد
لمست منه اخلاصا لاشائبه فيه -
يعتقد .. ثم لم يعد الى زيارتي حتى
يومي هذا ١٩٨٩/١٠/٢٣ - وقد مضى
شهر ويومان على عودتي للبيت - كان
اهتمام قرائي بي في مرضي يقابله مني
وفائي لهم بما انا قادر عليه من
اعتصار فكري مدادا على الورق فكنت
في ذلك امتدادا لنفسي المعهودة حتى في
اشد ايام المرض وطأة عليّ فما نسيتهم
ولانسيت دينهم في ذمتي فقد كنت قبل
رقادي بالمستشفى بيوم واحد قدمت
الى رقابة المطبوعات الجزء الاول من
كتابة لي في التعليق على كتاب الرئيس
غورباتشوف المسمى « بيروسترويكا »
فتابعت من المستشفى منذ يومي الاول
فيه موالاة الاهتمام بسرعة اجتيازه
مرحلة الرقابة فتم ذلك بفضل من
الاستاذ محي الدين اسماعيل في ديوان
وزارة الاعلام وترحيب من الاستاذ
مؤيد عبدالقادر ، مدير الرقابة ،
فرجعت الى النسخة الموسومة
بموافقة الرقابة في يومي الثالث
بالمستشفى مصحوبة برسالة
شخصية في غاية الرقة والدماثة من
السيد مؤيد نفسه اعتبرها من
الذكريات المضيئة لتلك الفترة.

استسلمت الى ... الصعوبة الى ماكان سهلا من شئونها وشجونها فكيف بما هو صعب في ذاته !

لكن الثقة لم تفارقني : فمن غريب امرى الذي هو من الصدف السعيدة من جبلتي هو اني مع امتناعي الفطري من التفاؤل العبيط والتعشم الاجوف وتوقع الابهج فان امتناعي من السوداوية واحترازي من التشاؤم اقوى وامكن من طبعي . وكان لثقتي الكاملة بطبيبي المعالج رفد عظيم لقوة التصميم في التغلب على المحنة .. انه طبيب من صفاته ان يقدم سلامة المريض على راحته فلايجنبه اية صعوبة فيها مظنة شفائه .. انه الدكتور اسامة وكفى ..

مضت بضعة الايام الاولى وانا مشارك لثلاثة اخرين من الممتحنين بمثل مرضي في غرفة واحدة كثيرا ماكانت تضيق بالزوار الذين يتفقدونني في غير ايام الزيارة ولكن ثلاثتهم كانوا من طوله البال وسعة الصدر معي حتى ابدو بينهم كالضيف العزيز المدلل .. بعد الايام الاولى لمست رعاية خاصة من المسؤولين المخولين حق التقدير لمتطلبات حال المريض فنقلت الى غرفة اخرى اوتنى وحدي بقية ايام مكثي بالمستشفى تحتملني وتحتمل عودي دون ان يلحق الضيق بالمرضى الاخرين .. ازدحمت اكناف القاعة بشدات الورد والهدايا الحلوة من الاصدقاء فتصرف فيها ذوو الخبرة على الوجه الاوفق الى يوم مغادرتي دون علمي او سؤالي .

كان حميد المطبعي بالمرصاد .. فما بلغ حالي علمه حتى نقل خبرى الى صحيفتي الثورة والقادسية فتفضلتا بنشرة مشكورتين بدورتين ونقلت صحف كردية ، اسو وبزاف وهاوكاري ، الخبر الى القراء الكرد فما عتمت ان فوجئت بان مرضى اشهر من كتاباتي فقد جذب الي من الاقاصي البعيدة ناسا من ابسط خلق الله واصفاهم عاطفة وانظفهم سريرة .. بعضهم يلتقي بي ، والتقى به ، لاول مرة .. كنت اجهل اسماء بعضهم وهوياتهم ولكنهم انتصبوا في احساسي عمالقة بالصدق الضخم الذي يفيض من لهفتهم و كلامهم وبالنبل الذي اقتلعهم من بيوتهم عبر مشاق السفر الى حيث يعودون مريضا لحلاوة الموقف وجمالة ... ينضو الواقع اسمال الرياء والالتواء والمصانعة فيصفو وجهه لمحض الخير والصدق و الجمال . ولعل ان يكون من تمام هذا الصفاء والجمال قولي الان اني لم اتلق من ماضي ايامي كلها مكافاة بلغت غاية السخاء حتى اشبعت كوامن نهمي الى التخمة مثل الذي انبث في وجودي الجسماني والروحاني من شعور اصيل عميق بعظم نصيبي في الحياة وانا اتلقى من اولئك الاصفياء عطفا يمازجه الجزع لايشترى جزء منه بمال قارون : صحيح ، ان مع العسر يسرا فان مواجع المرض ، لاسيما في ايامها الاولى ، عادلها بالتخفيف والتيسير شعوري المركز بوجود من يشاركني في معاناتها حتى كان قسطا منها يزايلني الى شركائي في الاحساس .. هذا الى جانب ماكنت المسه من العناية المثلى من الدكتور اسامة ، المشرف على علاجي والمرضى الاخرين في الجناح كله ، يعاونه فيها اطباء ومساعدون يكملون مسئولياته ويتمرنون على علمه وتوجيهه بانضباط شديد وتفان عجيب غريب ينسون فيه انفسهم وينكرون ذواتهم ..

ويكفي ان امثل على ذلك بما شهدته في احد ايام الفترة الاخيرة من وجودي بالمستشفى حين كنت استعدت القدرة على يسر التحرك وتفقد هذا والسلام على اخيه فقد لاحظت ان احد مساعدي الدكتور اسامة ، هو الدكتور نعمة يعاونه الدكتور احمد كامل ، ظل يعمل من اول الدوام في ساعات الصباح حتى الثالثة بعد منتصف الليل بلا راحة ولاغفوة ، مابين اجراء عملية في صالة العمليات وتفقد المرضى في الطابق التاسع واملاء التوصيات على الدكتور احمد بشان معالجة كل مريض من كلام متصل لم ادر كيف استطاع الدكتور احمد ملاحقته وتسجيله ثم قراءته بعد ذلك لتنفيذ ماورد فيه .. وكم حدث ان يتصل الدكتور احمد هاتفيا بالدكتور نعمة وهو يجري عملية فيساله عن كيفية التصرف في امر استجد فيتصل الدكتور نعمة بالدكتور اسامة في بيته ، بعد منتصف الليل ، فيرشده ويرشد هو بدوره الدكتور احمد فيقوم باللازم وسط زحام من مراجعات المرضى

فقد الاحساس بالتعب ان الراحة
سمعته بعد ذلك يحاور شخصا في
غرفته المواجهة لغرفتي حتى الرابعة
صباحا - الكلام بيني وبينك ، اني لم
املك دمعي من الترسل وانا اشاهد
هذه المباراة مع قوة الاحتمال فقد
غلبني الانبهار بعظمة انكار الذات
الذي عاينته في تلك الليلة بنهارها ..
ويا للاسى : فلقد علمت ان الراتب
الذي يتقاضاه الطبيب اول تخرجه
بعيد جدا من ان يكون كفّ هذا التعب
المضني خلال سنوات الدراسة التي
تعتصر الطالب حتى تتركه كالليمونة
في العصارة فيعقبها تعب اشد خلال
التمرين والتهيئة للاضطلاع بتمام
مسئولية الطبيب فلربما وصل عدد
سنوات الدرس والتمهيد والتمرين
التي لاراحة فيها ولاخور ولا حتى
التقاط النفس نحو من عشر سنين ثم
لاراحة ايضا لوجود مسئوليك لاحقة
خارج نطاق المهنة تاخذ سنين اخرى
من عمر الطبيب الناشئ ..

على ان تجربتي مع الدكتور احمد
سعيد - مساعد اخر للدكتور اسامة
هي بمثابة السكر المضاف الى القهوة
يحيلها شهدا شهيا . كان مزحوما
باكثر من مسئولية محمولة على عمله
المهني في المستشفى كالقاء
محاضرة ، والتهيؤ للامتحان على يد
اطباء انجليز ، والذهاب معارا الى
مستشفى اخر لحاجة طارئة ... لكنه
يختزن في دخيلته كمية هائلة من
الطيبة والانسانية وحلاوة الروح
تسمو به كثيرا على الترسخ تحت ثقل
الواجب . ان لقاءه في كل مرة كان
كالنسمة والبسمة المنعشة تفعل فعل
الجرعة المنشطة في تاجيل الهموم الى
حين .. طافت بنا الالفة في مدارات
كثيرة من مواضيع الحوار ماكان لها
ان تنتهي الى غاية لولا قصر الوقت
المتاح في مثل تلك الظروف . وكان له
اهتمام باللغة ويحفظ شواهد كثيرة
من عيون الشعر والحكم والامثال ،
ساقنا الاستطراد في اكنافها الى زوايا
منها غير مطروقة الا لماما . فذكرت
شيئا من الالفاظ المسماة « اضدادا »
هي كثيرة الوجود في العربية ونادرة
في غيرها من اللغات وعطفت انتباهه

الجراحية بعد تزودهم بما كفى من
الدروس والمعلومات المدونة في
الكتب ... وكان للماضي عودة اهل
فيها من وراء سبع وعشرين سنة :

تجسد الماضي على غير انتظار مني
في شخص واحدة من تلميذات ذلك
الرهط . ففي ايامي الاولى بالمستشفى
حيتني شابة سمراء حلوة الوجه
والقسمات والنبرات والحركات عرفت
نفسها انها في الصف الاخير من كلية
الطب تتمرن على يدي الدكتور اسامة
واسمها « هنادي » اسم مصري » -
الدكتورة هنادى » مكلفة بدراسة
حالتي تفصيلا وسوف تمتحن فيها
لاحقا . اراحتني محضرها بدماثتها
المفرطة وانا في شدة المرض .. وبعد
جلسة طويلة حاشدة بالاستفسارات
عن : كيف وماذا واين ومتى و
لماذا .. ؟ اجبت عليهما جميعا
باستعداد التلميذ الكامل الاستعداد
وهل من موضوع اسهل على فن
خوضه من مرضي الذي اعيشه منذ
سبع سنين ؟ في ختام الجلسة قالت
انها ستعيد الزيارة مرة وثانية وثالثة
وقد فعلت .. فلما جاءتني في الجولة
الثانية سالتني : هل ان لي اختا اصغر
مني اسمها ثريا ؟ فتذكرت في اللحظة
بعض ايام سنة ١٩٦٠ حين كنت
اصاحب اختي الصغرى ثريا في
مراجعات القبول طالبة بالقسم
الداخلي في دار المعلمين العالية ومعها
تلميذات اخريات من اماكن متفرقة
منهن واحدة من كركوك ، يصاحبها
والدها ، قبلت مع اختي في قائمة
واحدة فقلت لهنادي : هل انت بنت
السيدة نجلاء ؟ زميلة اختي ثريا ؟
فقالت نعم وان سؤالها كان بطلب من
والدتها بعد معرفتها بوجود - مسعود
محمد - في المستشفى ! كانت لحظة
حلوة ومؤسية بامتزاج كامل :
فالذكريات تجمع الامتاع الى الشجن
الى النزوع الى الحنين الى الاسف ...
الى .. الى ولكن وجود « هنادي »
بنضجها المبشر كان اشهى استحضار
لماض طوته سبع وعشرون سنة منذ
اخر مرة التقيت فيها « بالست »
نجلاء في السنة الثانية لقبولها بالكلية

في ضيافة دار الشفاء

بقلم : مسعود محمد

...ارانهم وتشابكاتهم بلا تذمر او كسل .. فلما صعد الدكتور ...ر الامر الى الطابق التاسع اثر ... وما اليها في تمام الساعة ...عد منتصف الليل رايته قد ...اس بالحاجة الى الراحة فقد ...عد ذلك يحاور شخصا في ...اجهة لغرفتي حتى الرابعة ... الكلام بيني وبينك . اني لم ...ي من الترسل وانا اشاهد ...راة مع قوة الاحتمال فقد ...لانبهار بعظمة انكار الذات ...نته في تلك الليلة بنهارها .. ...ل : فلقد علمت ان الراتب ...اضاه الطبيب اول تخرجه ... من ان يكون كفّ هذا التعب ...خلال سنوات الدراسة التي ...الطالب حتى تتركه كالنبوتة ...ارة فيعقبها تعب اشد خلال ... والتهيئة للاضطلاع بتمام ... الطبيب فلربما وصل عدد ... الدرس والتمهيد والتمرين ...راحة فيها ولاخور ولا حتى ...النفس نحو من عشر سنين ثم ...ايضا لوجود مسئوليك لاحقة ...طاق المهنة تاخذ سنين اخرى ... الطبيب الناشئ ..

...ن تجربتي مع الدكتور احمد ...مساعد اخر للدكتور اسامة ...ة السكر المضاف الى القهوة ...مهدا شيئا . كان مزجوما ...مسئولية محمولة على عمله ... المستشفى كالقضاء ... والنهيؤ للامتحان على يد ...ليز . والذهاب معارا الى ...اخر لحاجة طارئة .. لكنه ...دخيلته كمية هائلة من ...انسانية وحلاوة الروح ...را على النرسخ تحت ثقل ...لقاءه في كل مرة كان ...سمة المنعشة تفعل فعل ...طة في تاجيل الهموم الى ... بنا الالفة في مدارات ...ضيع الحوار ماكان لها ...غاية لولا قصر الوقت ...لك الظروف . وكان له ...ويحفظ شواهد كثيرة ...ر والحكم والامثال . ...في اختالها الى زوايا ...ة الا لماما . فذكرت ... المسماة « اضدادا » ... في العروبة ونادرة ...ت وعطلت اشياءه

الى فعلي « كب . اكب - قلع . اقلع » المعتبرين قريدين في ان ثلاثيهما المجرد متعد وان صيغة « افعل » فيهما لازمة مع بقاء المعنى فيهما واحدا . واضفت الى كلامي له اني اجرا ان اضيف اليهما في هذه الصفة فعل « عرض . اعرض » رغم ان الهمزة في « اعرض . بي » همزة اسكات - في حين انهني واعتبر ... و اوشكت ان افتح له باب « الاسماء المتضايفة » على قدر علمي بها لكن ظارفنا حال دون ذلك وكان الوقت متاخرا في الليل . وفي غده شط النوى بالدكتور احمد سعيد فلم التق به بعد ذلك حتى لقد عز الوداع بيننا فكانت له مضاعفة اثر الفراق ... فلعل صروف الدهر مساعفة تتيح لقاء ثانية

كان تلامذة في الصف المنتهي من كلية الطب يتجولون دارسين احوال المرضى جلهم من تلامذة الدكتور اسامة يتمرنون على يديه بشكل عملي ميداني من ضمنه حضور العمليات الجراحية بعد تزودهم بما كفى من الدروس والمعلومات المدونة في الكتب ... وكان للماضي عودة اهل فيها من وراء سبع وعشرين سنة :

تجسد الماضي على غير انتظار مني في شخص واحدة من تلميذات ذلك الرهط . ففي ايامي الاولى بالمستشفى حيتني شابة سمراء حلوة الوجه والقسمات والنبرات والحركات عرفت نفسها انها في الصف الاخير من كلية الطب تتمرن على يدي الدكتور اسامة واسمها « هنادي » اسم مصري » - الدكتورة هنادي » مكلفة بدراسة حالتي تفصيلا وسوف تمتحن فيها لاحقا . اراحني محضرها بدماثتها المفرطة وانا في شدة المرض .. وبعد جلسة طويلة حاشدة بالاستفسارات عن : كيف وماذا واين ومتى و لماذا ..؟ اجبت عليهما جميعا باستعداد التلميذ الكامل الاستعداد وهل من موضوع اسهل على فن خوضه من مرضي الذي اعيشه منذ سبع سنين ؟ في ختام الجلسة قالت انها ستعيد الزيارة مرة وثانية وثالثة وقد فعلت .. فلما جاءتني في الجولة الثانية سالتني : هل ان لي اختا اصغر مني اسمها ثريا ؟ فتذكرت في اللحظة بعض ايام سنة ١٩٦٠ حين كنت اصاحب اختي الصغرى ثريا في مراجعات القبول طالبة بالقسم الداخلي في دار المعلمين العالية ومعها تلميذات اخريات من اماكن متفرقة منهن واحدة من كركوك . يصاحبها والدها . قبلت مع اختي في قائمة واحدة فقلت لهنادي : هل انت بنت السيدة نجلاء ؟ زميلة اختي ثريا ؟ فقالت نعم وان سؤالها كان بطلب من والدتها بعد معرفتها بوجود - مسعود محمد - في المستشفى ! كانت لحظة حلوة ومؤسية بامتزاج كامل : فالذكريات تجمع الامتاع الى الشجن الى التزوع الى الحنين الى الاسف ... الى .. الى ولكن وجود « هنادي » بنضجها المبشر كان اشهى استحضار لماض طوته سبع وعشرون سنة منذ اخر مرة التقيت فيها « بالست » نجلاء في السنة الثانية لقبولها بالكلية

اثناء احدى زياراتي العابرة لاختي وصويحباتها .. والذكريات صدى السنين الحاكي ... بعد ايام حصل امتحانها في درس حالتي فقد حضر الدكتور اسامة الى معتكفي ومعه جوالي عشرة من التلاميذ فاسئولي باسئلته المباشرة وغير المباشرة ...ملات الدكتورة هنادي اسئولته حتى وكنت اسمع الحوار مع بقية الطلاب المستمعين اجتازته هنادي بنجاح مقبول في ضوء الاسئلة الدقيقة التي كان الدكتور اسامة يفرعها من اصل المواضيع الى مايتصل بها وينبثق عليها من تشابكات العلل والمعلولات.

وحدثت تجربة صغيرة ذات دلالة لاستطف بها : ففي اوائل ايامي بالمستشفى وانا في اشد المعاناة والكلال زارني شاب لاعرفه . قدم نفسه على انه ماركسي معه جماعة مثله ماركسيون ينتظرونه خارج المستشفى وقد ناب عنهم لينافشني في الماركسية وسيعود اليّ والى الموضوع مرة او مرات .. رحبت به وتشابكت خيوط الحوار بيننا لمدة غير قصيرة حاولت فيها ان احترم جهده من تكلف الحضور فاضيّ مواضع اشكالاته بما عندي من القدرة على الايضاح . لم احنق به قطعا وفتحت له صدري المكدود فقد كفاني منه احتراما لارائي انه اختارني دون العالمين للمناقشة رغم اختلاف الراي . بل بسبب هذا الاختلاف . فقد بدا انه كان قد قرا كتاباتي فتراءى لي فيها من الوجاهة ماحرك فيه الحرص على قدسية معتقدة بالدفاع عنه في وجه ادلة نقض نشرتها لايسوغ تجاهلها .. كانت المسالة الفكرية بيننا واسعة باكثر مما بين عمرينا من تفاوت جيلين وكانت تصوراتنا عن حقائق هذه الدنيا المتصلة بمصائر البشر على طرفي نقيض بل اننا لم نكن نتصل في الفكر حتى عن طريق التناقض ولكني لم اشعر معه بالغربة الروحية فقد لبست منه اخلاصا لاشائبه فيه ... يعتقد .. ثم لم يعد الى زيارتي حتى يومي هذا ١٩٨٩/١٠/٢٣ - وقد مضى شهر ويومان على عودتي للبيت - كان اهتمام قرائي بي في مرضي يقابله مني وفائي لهم بما انا قادر عليه من اعتصار فكري مدادا على الورق لكنت في ذلك امتدادا لنفسي المعهودة حتى في اشد ايام المرض وطاة عليّ فما نسيتهم ولانسيت دينهم في ذمتي فلقد كنت قبل رقادي بالمستشفى بيوم واحد قدمت الى رقابة المطبوعات الجزء الاول من كتابة لي في التعليق على كتاب الرئيس غورباتشوف المسمى « بيروسترويكا » فتابعت من المستشفى منذ يومي الاول فيه موالاة الاهتمام بسرعة اجتيازه مرحلة الرقابة فتم ذلك بفضل من الاستاذ محي الدين اسماعيل في ديوان وزارة الاعلام وترحيب من الاستاذ مؤيد عبدالقادر . مدير الرقابة . فرجعت الى النسخة الموسومة بموافقة الرقابة في يومي الثالث بالمستشفى مصحوبة برسالة شخصية في غاية الرقة والدماثة من السيد مؤيد نفسه اعتبرها من الذكريات الحميمة لتلك الفترة.

في ضيافة دار الشفاء

بقلم :
مسعود محمد

الوقف عند قطتين استانستا بي فما
عساهما تفعلان في غيابي عن البيت ؟
وربما ركزت على موضوعة واحدة
منحها كل اهتمامي واذا بتبدل
لضوء الاحمر الى الاخضر في ميدان
نهاية الجسر عبر النهر يسرقني
يحتكرني لحسابه الخاص فقد همنا
ن امره ان الضوء الاخضر لا يدوم الا
ثنيهات تكفي لعد الارقام من الواحد
ى الاثني عشر على حين يدوم الاحمر
تى ما بعد الرقم ثمانين باستثناء
الات نادرة يدوم فيها الاخضر الى
رقم عشرين فما عسى ان يكون السر
هذا التفاوت ، وماذا يفعل الناس
لضوء الاحمر الذي في الجانب غير
رئي مني فهو يدوم بدوام الأخضر
تي عشرة ثانية فقط على حين يدوم
خضر في الجانب الآخر بدوام
حمر من جانبي ، ثمانين ثانية !!
رة واية حيرة تكبر في دماغ
يلوس ثم ترق حواشيها لتشف عن
آخر في مثل تفاهتها او في قمة
طورة انشغل به في مثل انشغال
رج بوش بالسياسة حين يتسمر
ي بلا داع معلوم على بقعة لاعلى
ين على خط الافق تتدحرج وعلى
د مصابيحها الخافتة كالزئبق ..
ت مجاوني ما السر في ان بعض
بيح الافق الابعد تبدو اعلى من
ابيح على جانبيها في خط الافق ؟
انها مصابيح (الفلك) تعلو
ها لا لانها مركوزة في ارض
! فبدد حيرتي وانقذني من خطا
معي لباقي متعاقبة من تصوري
رض بغداد كثيرة التفاوت في
أ من مكان الى مكان ... تفاهات و
ت من تخاريف المرض تتضخم
تستدعي على الفهم وليست في
ها اكثر من بديهية بادية
..... كافات معاوني على انقاذه في
رتي بأن جلبت انتباهه الى ان
ب في مواضع من شطان دجلة
ت من حوض النهر خمسية
قالت انه اذا زاد المطر السنوي
دود استيعاب السدود من
ا وغيرها لمياهه فان بغداد
س لخطر مستعص على العلاج
ضيق مجراه بمقدار الخمسين
الى المساحة الفاصلة بين مبنى
ى ومياه النهر : ان المغلبة من
، وقد ردمت حوالي ثلث
نهر ، وقلت له ان ما يقراه من
هر لمجراه في التاريخ البعيد
راجع الى مضايقة الرواسب
يسيفعل الشئ نفسه عند

الضرورة الملجئة ... تذكرت انه في
شتاء سنة ١٩٥٤ زادت مناسيب دجلة
في بواكير الربيع الى حد الخطر الماحق
فصارت بغداد جزيرة وسط بحر من
مياه الفيضانات وكانت السدود
الترابية حول اصل المدينة هي
الحجاب الحاجز الوحيد دون الكارثة
وقد بلغ مستوى الماء الحافة العليا
لمستوى السدود : وفي ذروة الخطر
كان المصير متعلقاً بهبة هواء تحرك
الماء لفترة قصيرة فياكل كل من تراب
السدود وهو خام لا تماسك فيه ..
ولكن الطبيعة بقيت عاقلة فمرت
الازمة بسلام . وما كل مرة تسلم
الجره كما يقولون .. ولا يتاح دائماً
مثل شخص وزير الداخلية لتلك الايام
الذي جند كل امكانات الدولة
والسكان والشركات ، عراقية واجنبية
لايام متوالية بلانوم ولا راحة حتى
استطاع ان يغالب الماء من حول
المدينة بتمتين السدود الترابية
واعلاء مستواها وادامة جيش من
المتطوعين والمجندين على السدود
يراقبون بثوقها ، اذا حدثت لتسليط
الجاروفات على مواضعها .. ثم انه
بدد مخاوف الناس من الاشاعات
المقلقة للعزيمة فلولا تطميناته
المتوالية من الراديو بان الحالة
العامة مسيطر عليها لهجر سكان
صوب الرصافة في مثل السيل الى
صوب الكرخ فاختلط الحابل والنابل
وبقيت السدود بلا حماية وانهارت بلا
ادنى شك ولا ادنى صعوبة .. اذكر
من كلامه ان عدد سكان بغداد كان
عامئذ ثمنمائة الف نسمة .. فها هي
الان خمسة ملايين ولم يزل النهر
يتهادى في انحداره الى البحر بسلام
وقد داعبنا في العام الماضي بشئ من
التخويف ، افنه حرك الهمم وجلب
الانتباه الى وجوب اجراء جذري
لاستئصال الخطر فقد رايت في بعض
مشاهداتي قبل المرض جهودا في ازالة
الرواسب من اماكن من شطان دجلة ..
المشكلة ذات حجم كبير لتعدد
المواضع التي ضاق فيها مجرى النهر
واوضحها شاطئ شارع ابي نواس
فالارض المنبسطة المتولدة من
الرواسب ذات مساحة تكفي لبناء
بلدة متوسطة الحجم عليها .. ولابد
في النهاية من تحليس الشطان بالمواد
الثابتة المقاومة للذوبان والتاكل حتى
لا تجد العوالق نتوات تعاود فيها
الالتصاق .. طالت اخيلة متنافرة
متناغمة متداخلة متفارقة من حيثيات
هذا الطمي وانا احدق النظر ليلاً في
وجه دجلة المجدر بنتف الضوء
المنعكسة منه .. ودجلة في يومها او
ليلها من تركيز نظري في وجهها البطئ
الوئيد اقرب الى السكون منه الى
الحركة مثل نهر القصيدة فاذا ايقنت
لهموده تزعزع يقيني في لحظات
بانسياب فكرى مع حركة الماء وتغضن
وجهه بالنسمات فاتلملم انا وتستمر
دجلة منسابه الى مصيرها مع حيتان
البحار ، ثم تردد مرة اخرى الى
منابعها بخارا وسحابا وثلوجا
وامطارا في داب ازلي ابدى .. ولعلها
تستمد ماءها من بخار الابيض
المتوسط فتحبل من الأغبار .... وماذا
في ذلك ؟ انها لا ترتبط بانتماء محدد
فهي طليقة من اسر الايديولوجيات
واسيرة بنواميس الطبيعة الامازون
او الفولغا او النهر الاصفر الا كما
تفعل دجلة من باب الضرورة !! يا
اخي ، ياحبيس المستشفى دع دجلة و
الايراوادي للطبائع وانظر ماذا انت في
قبضة المرض وما موقعك الليلي من
التوقيت الصيفي والساعة الصغيرة
في جيب معاونك وهو غارق في نومه
فهل توقظه ؟ ام تستهدي بحركة
السيارات على الجسر في مهوى نظرك
من تاسع دور ؟

انها بحدود الثالثة صباحا فالحركة
ضعيفة جدا والسيارات العابرة الى
الرصافة على ضالة اعدادها اكثر من
العابرات من الاتجاه المعاكس ... ان
الحياة البشرية مثل دجلة ، بنت
الطبيعة تصب في العيلم حيث
المصالح المعاشية والرسمية في
الرصافة اشد كثافة واكثر جذبا .. فاذا
امتلات حتى التخمة عادت الحياة
فسحبت امواجها البشرية بعد الدوام
الرسمي الى مضانها في الكرخ او المدن
الواقعة في عدوتها فزادت سيارات
العودة عدداً عن سيارات القدوم !!
اكتشاف جميل وحاذق اليس كذلك ؟
وما جدواك من هذا الاكتشاف وغيره
وجيبك خال وبدلاتك قديمة
ومستحقاتك من بعض الدوائر
الرسمية الثقافية من كتاباتك موقوفة
حتى العام القادم بسبب جفاف
معينها في ميزانية هذا العام ؟ ثم ان
الكرسي تحتك غير مريح فالتمس
وسادة من فراشك تقعد عليها فوق
الكرسي .. هي وسادة من بيتك فلا
محذور اذا انشقت ولا سلوان اذا لم
تنشق .. دعك من مناقشتها واتركها
تنشق اولا تنشق فهي حرة او غير
حرة من حكم الدساتير الطبيعية
ركبك العناد فتعمدت تمزيقها لتعلمها
ماذا هي في موازين الحرية ؟ كم انت
بطل مع الوسادة وما كنت الا متاملاً
مع دجلة .. غلبتك دجلة بل غلبتك
الوسادة ايضا وستغلبك غيرها من
الحوائج لانك سوف تتسول اذا اثبت
قدرتك وعدم قدرتها بتمزيقها او
تفتيتها او حرقها .. ها ! بدات
السيارات تزداد عددا في عبور الجسر
فنحن بعد الرابعة صباحا بكل تاكيد
فهلا غفوت قليلا ... تحامل على نفسك
مع الوسادة الى الفراش ودع صاحبك
في نومه فانك قادر على الاستلقاء
والتغطي بلا مساعدة ! انت استعدت
جانبا من قدرتك هو دون الكفاية
لتحريك القلم ولكنه كاف للاستقلال به
في بعض شئونك .. الجنب الايمن هو
الافضل ؟ هو المساعد
في هذه الغرفة المتوجه نحو النافذة
تديم من خلالها ارتباطك بالعالم عن
طريق النظر ... غريب الا اجد نجمة
واحة في صفحة السماء ... النجوم
الزواهر الكبيرة غير منكشفات في
السماء الغربية والجنوبية ،
والنجوم الخافتة .... يحجبها شئ من
غبار الجو اذ يعكس ضوء المصابيح
في مثل غبش الضباب ... ثم ياسيدي

ولندم الذ
ان زوجة
تذكرو فقد
وحجبت ك
العدوة الا
المستشفى ،
لضاق نفس
المسائلة ...
وبالدخان ف
تضيق بامو
تكور بعضر
قالت وضعف
يضايقك ، و
اليمين يؤلمك
وسيادة خفية
بينهما جانبا
مسعود محمد
وتفيق بما لا
منظر السابح
يعومون متقا
قوارب بخاري
تمرين .. بقيد
خاصة بك وهم
الرياضات اف
اخرى تفريط
تمرينهم وانشغ
في شئ يجلب ال
فاكهة صيفية و
وكم منها بحر
البهيمة ذات
قوسان واحد
خالفت بعيد ف
حيالك صليت
مسجد جنك
صليتها جماع
اصبحتها الوقوع
هي غير القيلولة
الكردية للقيلولة
فيها ما يقابل ا
مشترك بين ال
العربية ايضا هو
ونداء الدلال ...
واذن مؤذن يا ا
يرفع صوته بالأ
يبدو ! هو الص
الغسق ؟ بل غلس
الـ ... علام الغيو
النفس المطمئنة

وفتحت عيني
ستشرق شمسه
ويوقف الدكتور
موضعها المعتاد
جميعا في شبه ر
التفلوت في موازين
الوجود منذ كانت

القادسية البصرة العدد ٢١٠٧ في ١٩٩٩/٤/١٧